"من قتل ليلى الحايك؟"

أو

"الشيء الاخر"

غسان كنفاني

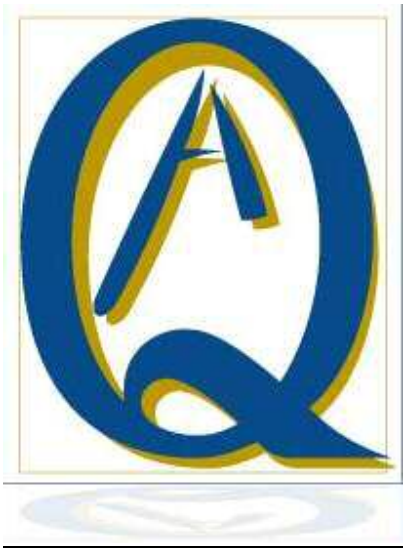

انا لم اقتل ليلى الحايك..

اقولها لك انت يا ديما الحبيبة الرائعة..

و اقولها لكم جميعا ايضا.

اقولها لكم للمرة الاخيرة،دون ان اتوقع مردودا لا بالجزاء و لا بالعقاب. و لذلك لا بد ان تكون صادقة : فليس ثمة اصدق من حكم يطلقه على نفسه رجل ميت!

انا لم اقتل ليلى الحايك..

و لست اريد لاحد ان يمنحني الشفقة اذا اقنعته هذه الكلمة بان رجلا بريئا قد شنق. و لست اقولها لاي غرض .و ليس لهذه الحقيقة ان تفعل ايما شيء مع العدالة. فقد كانت القضية كلها ، قبل ات يكتشفها القضاء و بعد ان اصدر حكمه فيها ، فوق قدراتنا جميعا و وراء منطقنا ، و لذلك ارتضيت كل دقائقها صامتا ، كما تعلمون.

ليس تماما.

لقد تكلمت كثيرا في الساعات الاولى. دافعت عن نفسي بالحقائق التي يستطيع الرجل المفرد ان يراها، ثم فجاة - كما ينشد حبل ما حول عنق انسان فيرفع في لحظة واحدة جدارا حاسما بين الموت و الحياة - قررت ان اصمت.

لقد استغرب الكثيرون مني انا بالذات ان التزم الصمت في حين اخذت الدلائل كلها تدفعني اكثر فاكثر نحو حبل المشنقة.. انا الذي ما تعودت ان اصمت حين كان الموت يهدد الرجال الذين سلموني بقدرية لا مثيل لها ، حبال مصائرهم.

و انت يا ديما الحبيبة الرائعة ، كنت بلا شك اكثر الناس استغرابا..

فيما مضى كنت ارمقك و انت جالسة في مقاعد الحضورتنظرين الي مغتسلة باعجاب كان يثيرني و انا منصرف الى الدفاع عن المتهمين.. و حين كنت انتزع من منصة القضاء حكما بابطال اتلموت عن موكلي كنت اعتبر هذا النصر هدية لعينيك وحدك ، و كنت دائما - اصدقك عواطفي الان - انغمس و انا سابح في انتصاري بتصورك تاك اليلة بين ذراعي .. كنت تمنحينني عاطفة عميقة غريبة كان انقاذي لموكلي هو وحده الذي اتاح لك ان تنامي في الفراش معي. كان تخلبص انسان من الموت كان يوقد في لحمك انت وهج الحياة.

ترى ..كيف تفكرين الان؟ هل تعتقدين لحظة انني انا الذي قتلت صديقتك ليلى الحايك؟ هذا السؤال هو الذي كان ، وحده ، يؤرقني في اليالي التي قضيتها و حيدا في الزنزانة.

لا يا ديما الرائعة.. انا لم اقتل ليلى الحايك!

تقولين : اذن لماذا التزمت الصمت طوال الوقت ؟ ما الذي ربط لسانك ؟ لماذا ام تدافع عن حياتك انت الذي خلصت حياة الكثيرين من حبا المشنقة ؟

هذه هي قصتي كلها..

انها الجواب على هذه الاسئلة التي حيرت الجميع و حيرتك انت خصوصا و حيرتني انا - في البدء - اكثر من اي انسان اخر.

لقد كان صمتي اعلانا راعدا عن " شيء اخر " في حياتنا عشنا دائما في معزل عنه فاذا به ، فجاة ،اقوى ما في حياتنا...

من الذي قتل ليلى الحايك اذن ؟

اجيبك ببساطة : شيء اخر هو الذي قتل ليلى الحايك ، شيء لم يعرفه القانون و لا يريد ان يعرفه.. شيء موجود فينا ، فيك انت ، في انا ، في زوجها ، في كل شيء احاط بنا جميعا منذ مولدنا..

نعم انا جزء من الجريمة، و انت كذلك ،و لكن الذي نفذ الجريمة هو وحش غامض ما زال و سيظل طليقا.

لقد صمت حين اكتشفت هذه الحقيقة فجاة.. وجدت نفسي في الفخ..و عانيت ما عانى كل انسان اكتشف فجاة شيئا لم يكن رفاقه قد اعتادوا عليه بعد. و اذلك قررت ان اصمت. و ان اترك كل شيء ياخذ مجراه الذي سار فيه دون ارادتنا و سيظل يسير فيه بصرف النظر عن ارادتنا..

ان هذه الامور شديدة التعقيد جين نقولها ،و لكن حين تمارسها الاحداث معنا تصبح غير ذلك.

و لهذا بالضبط قررت ان اكتب لك انت.. لانني احبك ، و لانني لمحت في عينيك و انا جالس في القفص استمع الى حكم القضاء ومضة شك ارعبتني..

و سوف لن ازيد شيئا على نا حدث. و سابرر المور لك حين اشعر انها في حاجة الى تبرير و لكنني ساقول الحق ، كل الحق ، و لا شيء غير الحق.

و انت _ بعد ذلك - حرة في ان تعتقدي ما تشائين. فلنا في الواقع اضع على كتفيك الحمل الثقيل الذي واجهته بالصمت.. فاذا اخترت ان تواصلي الصمت و تطوي المسالة برمتها فهذا يعني انني انا ايضا كنت على صواب.

و اذا اخترت ان تفتحي الملف امام القضاء مرة اخرى فسترين بعينيك انك ستدخلين الى عالم غريب لا مخرج منه تفضلين فيه مثلي لو انك اخترت - مثلي - ان تصمتي.

اجلسي الان بهدوء على كرسيك المفضل قرب باب الشرفة ، و اقراي القصة كلها بعناية.. و سابدا من النقطة التي لم يتيسر لي قط ان ارويها لك.

في منتصف نيسان الماضي بدات القصة بالنسبة لك على الاقل..

استدعاني المحقق الى مكتبه في التاسعة و النصف صباحا ، كان قد سال سكرتيرتي هناء عني في التاسعة و حين قالت له انني اصل في التاسعة و الربع الى مكتبي قال لها انه سيخابرني فيما بعد. و انه لا يريد ازعاجي في البيت.

و جاء صوته في الهاتف لطيفا و دافئا ، عكس المطر الذي كان يجلد النافذة. و قد دخل الى الموضوع مباشرة لكن دونما عنف. و ابلغني :

- سنحتاجك نصف ساعة هنا يا استاذ صالح،في مسالة مستعجلة لو سمحت.

سجلت على دفتر الملاحظات ملاحظتين لهناء، و الغيت موعدا ، لم ينتابني اي شعور غير عادي فالمسالة بالنسبة لرجل يعمل في المحاماة مثلي مسالة عادية تماما. تناولت مظلتي و طلبت من السائق ان يوصلني الى مكتب المحقق الذي كان يعرفه جيدا.

اجتزت الرواق دونما اعتراض - كالعادة – و تبادلت تحية الصباح مع عدد من الموظفين الذين كانوا يعرفونني جيدا...و دخلت الى غرفة المحقق دون استئذان – كالعادة - و هناك فقط جاءني للحظة واحدة شعور غير مريح حين تجاهل يدي الممدودة و لم يقف..

تكلم بهدوء ، و لكن بثقة و برود ، فيما كان يقلب بين اصابعه الغليظة علبة ثقاب ،و قد بدأ ، كما على الهاتف ، مباشرة و دونما عنف :

- سنسألك سؤالين عن ليلى الحايك
و خفق قلبي خفقة بعيدة ليس بوسع احد اكتشافها او ملاحظتها، فطوال الشهور الثلاثة الماضية كنت قد تعلمت ان اجعل بدني باجمعه ، على السطح ، يمر مرورا عاديا فوق اسمها حين كان يلفظ امامي :في المكتب او في البيت. من سكرتيرتي او من زوجتي او حتى من زوجها و اصدقائه.
و بهدوء سالت :
-ماذا عن السيدة الحايك؟
- -متى شاهدتها اخر مرة؟
و لاحظت وراء جفنيه بريق العين التي تعرف انها في تلك اللحظة تلعب لعبة الذكاء ، فتراجعت في مقعدي و فكرت . كنت افكر حقا لاتذكر اخر مرة شاهدتها فيها على مراى من شاهد ، و قلت :

- منذ يومين كما اعتقد. انني لا اذكر تماما

و بجفاء وضع الامر كله على الطاولة بيني و بينه:

- يجب ان تذكر تماما الان.

- انني لا اذكر تماما ، فهي صديفة زوجتي و زوجها صديقي و ثمة قضية في المحاكم نتعامل معها سوية. و اراها عادة في امكنة عديدة دون مناسبة او في مناسبة. و لكن ذلك لا يعني شيئا ، و لست مطالبا ان ادونه في مذكرتي.

و اقتربت من الطاولة و سالت :

-و لكن هل استطيع لو سمحت ان اعرف لماذا كل هذه الاسئلة؟

و قام عن طاولته و دار حولها واضعا كفيه في جيبي صدارته الرمادية ، و اقترب مني اكثر مما يقترب المحقق ، عادة ، من محامي و لكن اقل مما يقترب من المتهم ، و قذف الجملة في وجهي كما تنقذف سدادة زجاجة :
-لانها قتلت.

لقد جاءت الكلمة الى اذني اولا و بالطبع ، و لكن حين ارتد صداها من الحائط الداكن كنت قد ابتلعتها حتى العماق ، و اصبحت بالنسبة لي قضية ، لا اكثر و لا اقل ، حالة ، جريمة مروعة ،و لكن ابدا لم تعد مسالة شخصية . في مرات عديدة كنت اتصور ليلى ميتة ليسهل علي انر تقييمها ، و ذات مرة جعلت نفسي اتصورها ، و هي تمتص اخر قطرات اللذة على سريرها ،مجرد جثة ، كنت قد اقنعت نفسي بان الوسيلة الوحيدة التي تستطيع ان تنهي علاقتنا هي ان يموت احدنا. و ليس ثمة فكاك اخر. و لانه كان من المستحيل ان اتصور نفسي ميتا فقد اعتدت على تصورها كذلك. كنت اريدها ان تموت ليس لانني اكرهها و لكن لانني احب زوجتي و لانني لم اكن اريد ان اترك ايا منهما. كنت اتصورها جثة لان ذلك وحده فقط ، في تصوري ،كان جديرا بوضع نهاية صحيحة لكل شيء ، وحده كان المر الذي يجعلني جديرا بالحتفاظ بزوجتي و بحب ليلى في وقت واحد.

لم افجا اذن الا بمقدار ما تفجا العرافة بدخول الزبون ، و رغم ذلك فقد كان صوتي مبحوحا تقريبا حين تساءلت ، مشددا على كلماتي:

-ليلى الحايك قتلت ؟ كيف ؟

-كان يجب ان تسال متى ؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك ؟

و اخرجت علبتي و ناولتها له ، فتاملها لحظة ، و ابتسم ثم اعادها الي دون ان ياخذ لفافة:

-ان لك طريقة خاصة في فتح العلبة.

-الكل يقولون ذلك.

و دخل الى الموضوع بثقة الذي اكتشف كل شيء:

-لقد اوقعت علبة مفتوحة بالطريقة ذاتها على باب بيتها.

-متى ؟

-في نفس الليلة التي قتلت فيها ، امس.

و بدت كلمة قتلت ، حين لفظت الان ،جديدة ،تماما و مرعبة كاني انا الذي قتلتها. اما هو فقد ادار ظهره ، و عندها فقط ارتجفت و عضضت شفتي و منعت نفسي من البكاء ، و حين صار وراء طاولته فتح درجه بهدوء ، و تناول علبة سجائر منزوعا غطاؤها من جانب واحد حتى منتصف طول اللفافات و رماها على الطاولة امامي كانه يدعوني الى التدخين ، كان فيها لفافتان.

- اين كنت في تلك الليلة ؟
-اية ليلة ؟
_امس اذا شئت ان اذكرك.

_كنت اشرب قهوة على الشاطئ.
-هل تفكر ان تحدا رآك؟
_كلا.
و اشار الى العلبة و سأل:
_هل هذه العلبة لك ؟
_نعم.
_كنت احسب انك ستقول لا . هذا هو الخطا الثاني الذي ترتكبه خلال اقل من 12 ساعة...
و جلس ، و بدا لطيفا من جديد ثم اخذ يفكر باعتناء ، و قال كانه نسي شيئا هاما :
... _يا استاذ صالح.

و تحير . كان يتصور نفسه امام قضية خطيرة معقدة اشد التعقيد ، و ها هو يصاب بخيبة امل طاحنة حين لم ياخذ الامر كله من وقته اكثر من خمس دقائق . كان كمعظم المحققين قليل الثقة بنفسه اذا ما واجه خصما لينا. يفقد قشرته الصلبة حين يرى نفسه في غيرما حاجة الى نزال و ينقلب الى شيئ هلامي غير محدود ولا حاسم :
_انت محام قديم، رايتك هنا تدافع بذكاء عن اكثر من قاتل و تكاد تنجح تقريبا في كل مرة بتخليص رقبته من الحبل ، و لكن حين يجيء دورك تسقط علبة سجائرك على باب بيتها ، ثم تعترف بانها لك.

و سالت:

_كيف قتلت ؟

و قفز عن كرسيه كانما لسع . و على الرغم من انه بدا غاضبا حقا الا انه كان بميسوري ان اكتشف في اعماقه فرحة غامضة حين فوجئ ان المسالة لم تنته بالبساطة التي يتصورها ، و ان امامه لعبة طويلة ، و ربما معقدة ، و فحصني بعينيه الصغيرتين محاولا الدخول الى راسي . و لا شك انه اكتشف ان بوسعي ان اكون ، بسبب خبرتي الطويلة ، مجرما صعبا , اعطي اعترافا لابني منه متراسا ، و ارشو كلمة كي لا اخسر عشرا.

كان يعرف انه امامي انا ، لا يستطيع الا ان يكون عاريا تماما ، و انني اعرف ، من مقابلات لا حصر لها ، ابجدية وسائله جميعا، و رغم ذلك فقد كان من الصعب عليه ان لا يمارسها:

_تسالني كيف قتلت ؟ انا الذي اريد ان اسالك.

و عندها وقفت ، اطفات لفافتي و اقتربت من الطاولة التي كان ما يزال منحنيا فوقها و قات بهدوء:

_اذا كنت تريد ان تقول انني شاركت في قتلها ، فوفر على نفسك هذا الطريق المسدود ، ساساعدك قليلا في اكتشاف الامر ، و لكن قبل ان نبدا ضع هذا في راسك ، من الصدغ الى الصدغ.

و اخذت اقرع الطاولة بسبابتي مع كل كلمة:

_انا لم اقتل ليلى الحايك.

و استدرت ، و خطوت و لكن صوته اوقفني:

_انت موقوف يا لستاذ صالح.

ثم اكمل كانه تذكر شيئا:

... -لو سمحت.

امضيت بقية ذلك النهار في غرفة مغلقة تقع على مدخل الممر الذي يقود الى غرفة المحقق، لقد منعوا عني بالطبع ، كافة المقابلات ، و لم ار انسانا الا الذي قدم لي بتهذيب لا مثيل له وقعتي الغداء و العشاء المتواضعتين ، و قد اكلت بشهية طيبة ،و عانيت قليلا من انتهاء الدخان ، و كان المقعد الخشبي غير مريح ،ثم ان النافذة الصغيرة العالية جعلتني افقد الاحساس بالزمن ، و ليس صحيحا ان الساعة في معصمي تستطيع تمويني بتقدير سليم للوقت . ان قليلا من الذين لم يسجنوا ، لسبب او لاخر ، يعرفون ان تقدير الانسان للوقت و احساسه بالزمن لا يتوقفان على الساعة و لكن على الضوء ايضا ،و على الحركة ، و على المواعيد ، و على نظامه الخاص في تناول وقعاته و الذهاب الى سريره ، و حين ينفرد بالساعة فقط يشعر انه بشكل ما مخدوع .
لقد وقفت عند نقطة الزمن هذه لانها مهمة جدا في قضيتي . فقد كان توقيت الاحداث جميعا الشاهد الاول ضدي ، و حين كنت استمع الى مرافعة الاتهام و استجوابات الشهود كان الزمن ،الذي لم يكن يعني بالنسبة لي الا علاقات مع الناس و مع نفسي ،قد اضحى بطلا منفصلا له شخصيته الخاصة ينازلني هنا و هناك كانه خصم صعب .
>>
هل الزمن صدفة ؟ هذا سؤال لا يعني القضاء ، و ليس ثمة قانون في تراث الانسانية يتعامل مع هذه النقطة بقدر ما تسعفني ذاكرتي من شواهد ، و لكن ما اعرفه الان تماما هو ان الزمن لم يلعب الدور الرئيسي في القضية قبل توقيفي فقط . و لكن بعده ايضا . و في الشهور التي قضيتها سجينا نشات علاقة من نوع جديد بيني و بين الزمن ، لقد كف عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس و مع نفسي و اضحى خصما محضا .>>

حين تضعون رجلا في غرفة مغلقة خمسة شهور ، بلا امل تقريبا ، فان الزمن ، اذن ، لا يستطيع ان يكون بالنسبة له ما هو بالنسبة لجميع الناس . ان تنظر الى ساعتك فترى انها الواحدة امر لا يعني شيئا . انه تجريد محض . الواحدة بالنسبة لرجل خارج السجن هي ساعة طويلة ، او قصيرة ، هي ساعة قبل الغداء او ساعتين بعد انتهاء العمل . و لكن ما هي بالنسبة لي انا ؟ لقد تعودت هذا الامر تعودا فظا ، و حين كف الزمن عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس و مع نفسي صار الناس - و صارت نفسي ايضا اقل اهمية ، استطيع ان اقول انهما صارا طرفا في مسالة حسابية لا تعني احدا لا بمقدار ما تعني عملية حسابية ، بالارقام المحضة غير المترجمة الى مال او وزن او مسافة .>>

لو تركتم وقتا كافيا لي لكتبت كثيرا عن هذه المسالة ، و قد وقفت عندها هنا بصورة عابرة و اخشى ان تكون غامضة ايضا لابرر لكم صمتي ،لابرر لكن كل الامور التي لم تستطيعوا تفسيرها في سلوكي الى درجة ارتضيتم ان يكون تنفيذ الحكم في اسرع من المعتاد.

قبل انصرافه في المساء زارني المحقق ، و كان لطيفا جدا حين ابلغني بانه لا يستطيع ان يجزم بادانتي او ببراءتي او بموقعي بين الادانة و البراءة ، و لكنه يخشى ان اكون في موقف صعب .

- "انت الان في اخطر قضية شهدتها طوال خبرتك في المحاماة ، تحتاج الى قدر هائل من اهتمامك و اعتنائك ، ليس لانها معقدة فقط ، و لكن لانها تستهدف راسك ، لا راس موكل غريب .. انني انصحك بان تكون دقيقا جدا في اختيار اجوبتك امام هيئة المحققين غدا ."<<

هيئة محققين بهذه السرعة؟ هذا يعني ان الصحافة تضج كثيرا ، و ان لدى الاتهام ثروة من الادلة و ان الجريمة بشهة حقا لتكون قد استقطبت اهتمام الناس .<<
ليلى الحايك !<<
و فاحت رائحتها القوية فيما كانت العتمة تنزل من النافذة العالية . لقد كانت صديقة زوجتي من ايام الدراسة و لكنهما انقطعتا عن بعضهما بعد التخرج. و في السنوات السبع التي انقضت على زواجي لا اذكر ان ديما زوجتي قد لفظت اسمها امامي او تحدثت عنها ، و قد قابلتها لاول مرة في عيد ميلاد زوجتي .<<
كنا قد قررنا انا و ديما ان نمضي هذه المناسبة بهدوء : نتعشى في مطعم ثم نذهب فنرقص قليلا في ناد ليلي . و هناك التقت ديما بليلى و كنت اضم زوجتي في حلبة الرقص حين اخذت تتبادل الكلام من فوق كتفي مع امراة اخرى ورائي ، ثم قدمتها الي و قدمت هي زوجها ، و حين عدنا الى طاولتنا اقترح زوجها ان ننضم الى طاولة واحدة و على الرغم من اننا كنا قد اتفقنا على ان نجعل ذلك الاحتفال الصغير منفردا ، قاصرا علي و على ديما ، الا ان فرحتها بلقاء صديقتها القديمة بعد غياب طويل ، و ربما توقها الى معرفة من منا بكسب اكثر انا ام زوج ليلى جعلها تقبل العرض بلا تردد.<<
كان زوج ليلى ، سعيد الحايك ، رجلا وسيما ، يحمل وجها شابا لا تستطيع عبره استكشاف عمره، كان قصيرا بعض الشيء و لكنه نحيل الى درجة تخفي هذا القصر . و منذ بدا يتحدث كان من الميسور ان يلاحظ المرء انه شديد الذكاء ، واسع الاضطلاع ، يجيد الاستماع الى اي موضوع و المشاركة فيه ، و كان واضحا ايضا انه يحب ليلى بصورة لا تصدق. و يغار عليها بصورة ذكية : فهو يلاحق دون ان يتوقف عن الاستماع او الحديث ، نظرها اينما تنقل ، و يدرس اهتماماتها بالرجال و الازياء و اللوحات في محاولة واضحة لاكتشافها حتى الاعماق.<<
و كنت اعرف جيدا هذا النوع من الرجال الذي يعاني من شعور غامض بانه لم يمتلك حبيبته تماما ، بعد. و في سبيل ان يحقق هذا الهدف المعذب بخوض مغامرة صعبة لاكتشافها كي يوظف هذه الاكتشافات اليومية في عملية تطويق مرهقة ،و تلبية كاملة لكل اشواق المراة و مطامحها و نزواتها .<<
و كنت اعرف ايضا ان هذه معركة خاسرة حتما . ان العالم الذي يجتذب المراة و يرويها عالم شاسع و كلما اكتشف الرجل مساحة منه اطل منها على مساحة اكبر لم يكتشفها بعد، و يزيد ذلك في شعوره بانه لم يمتلك المراة بعد تماما. اما المراة فينتابها شعور مرير بان اكتشافها بهذه الصورة يفقدها كثيرا

من اسرار الانثى ، و يضيع عليها فرصة ممارسة دورها كمعيد ساحر غامض. و هي امام تقدم الرجل الذكي في مجاهلها تتراجع و تنكمش .>>
وحين قمت مرة اخرى ارقص مع زوجتي قلت لها :" ان ليلى الحايك امراة سهلة "<<
كانت ليلى نصف جميلة ،لكنها تتوقد باهتياج مثير و ليس بوسع الرجل العاقل ان يمنع نفسه من التفكير بها كعشيقة . >>
و قالت لي زوجتي :" لماذا تعتقد ان ليلى الحايك امراه سهلة ؟"<<
و تلك اللحظة بالذات ،فقط ، قررت ان ابذل المحاولة ،ذلك انه ليس بوسعي اعطاء جواب اخر ، ليس لزوجتي فحسب ، و لكن لنفسي ايضا .>>

و حين التزمت الصمت سالت زوجتي مرة اخرى :" هل تعتقد انها لا تحب سعيد ؟"<<
_ كلا ، انها تحبه جدا و تريد ان يظل يحبها .. لست ادري ، و لكن اعتقد انها ، لذلك امراة سهلة .>>
و فغرت ديما فمها ، و ابعدتني عنها و تاملتني ساخرة ثم قررت : " لقد شربت كثيرا "<<

و لم اكن قد شربت كثيرا حينذاك . و لكنني كنت امر في تلك اللحظات العابرة التي يشعر فيها الانسان انه يستطيع ، لو بذل قليلا من الجهد ، ان يمتلك العالم ، ان لحظات تشبه ان يكون المرء قد شرب كثيرا ،و صار بوسعه ان يصدق بان النظريات التي يحملها حول الاشياء و الناس و القيم كاملة في صدقها . و ان ما ينقصها فقط هو ان توضع في مكان تفرخ فيه تجربة ما.

وحين جلسنا قال سعيد باسما : >>

- انني اسمع عنك انك محام لامع ، و انا في الحقيقة فخور بمعرفتك .>>
و نظرت ليلى الي ، ربما لاول مرة ذلك المساء ، و درستني في نظرة واحدة لا تجيدها غير المراة الحقيقية ، و كان من العسير علي ان اعرف فيما اذا كنت اجتزت ذلك الامتحان .و من ناحية اخرى كنت مهتما في ان احول بين زوجها و بين اكتشاف ايما شيء ، كنت اريد ، بشكل ما لست اعرفه ، ان تدرسني من وراء ظهره ، كي لا تتقاطع نظراتها بعينيه الذكيتين ، الشديدتي الملاحظة.
و مضى هو كانه لم يقل شيئا بعد:
- اود لو تعطيني غدا نصف ساعة استشيرك فيها حول مسالة تخص صديقا .
_ اي نصف ساعة تشاؤها غدا .
و حتى تلك اللحظة لم اكن قد عرفت بعد ايا من صنارتينا قد شبكت الاخرى . كنت اريد ان اعرفه . ذلك انه اذا كان طفل الارملة افضل الطرق اليها فان الزوج هو الطريق الوحيد للزوجة السهلة. اما هو فقد كان يهدف بلا شك الى ما هو اكثر من استشاره تخص صديقا ، فليس من المعقول ان ينتظر رجل اعمال ناجح مثل سعيد الحايك مصادفة في ناد ليلي ليهام بمسالة صديق مزعوم . و سواء كانت صنارتي هي التي اصطادت صنارته او العكس ، فان على كل منا منذ الان ان يكون شديد الحذر . فقد كنا، ببساطة ، خصمين صعبين .
و تركته يرقص مع ديما و راقصت ليلى بوقار ، و حرصت ان لا اطرح عليها ايما سؤال ، اما هي فقد كانت ابسط مما توقعت، و قد سالتني اذا ما كنت اعلم حقا ان ديما رائعة ، و سالتني عن عملي و مكتبي و سيارتي و عائلتي و كنت اشعر انني يجب ان البي شوقها الى اكتشاف الاخرين ، لقد كانت

اجوبتي تزرع في راسها اسئلة جديدة ، انها ترتاح الى ان تلعب معي لعبة زوجها معها ، فاذا استمر ذلك بعض الوقت فالى اين سينتهي؟ كنت شبه متاكد من النتيجة . و لكنني تصرفت كرجل يستعصي على الامتلاك .
و ودعناهما على باب النادي و قلت لزوجتي : " انها سيدة بليدة "
و لكنني في اعماقي كنت متيقنا انني غرست نفسي في اعماقها .
لقد كانت هذه اللحظة بالذات هي بداية الجريمة التي اودت بحياة ليلى الحايك و التي لم ارتكبها انا ، و رغم ذلك حكمت بالموت بسببها .
و كانت مسالة واحدة في تلك اللحظة ، تقف نقطة سوداء غامضة في مشروع علاقتي بليلى....
ماذا تراه يريد مني؟
و لكن هذا كله سيبدوا لكم الان ، ايها السادة ، كانه خارج الموضوع ، و في الحقيقة انه ليس كذلك تماما ، ان اية حادثة - حتى لو كانت جريمة قتل بشعة - انما هي حلقة واحدة في القصة و ربما كان اكبر خطا يرتكبه القانون هو انه يحاول تشريحها منفصلة قدر الامكان عن اي شيء اخر ، و عندها لا يستطيع ان يكتشف فيها اكثر مما يستطيع المخبري ان يكتشف من قطعة الجلد انسانا ، صحيح ان القانون يظل مهتما في البحث عن الاسباب و القرائن ، و لكن اهتمامه هذا يكسب قيمته فقط حين تكون هذه الاسباب و القرائن قريبة بصوره مباشرة للجريمة ، ان الجريمة بالنسبة للقضاء هي قصة مسطحة ، فيما هي في الحقيقة قصة ذات ثلاثة ابعاد ، مثل كل شيء في هذه الحياة . انتم لا تستطيعوا ان تحكموا على هملت ، الان ، بالموت ،ذلك انه استطاع في اربعمئة سنة ان يقنعكم بان الجريمة التي ارتكبها انما هي حلقة واحدة من قصة لا يمكن تمزيقها ، و لو احضروا امامكم رجلا قتل اباه ليتزوج امه لشنقتموه دون تردد ، و لكنكم ستفكرون الف مرة قبل ان تمسوا شعره من راس اوديب.

زارني سعيد الحايك في مكتبي ظهراليوم التالي ، بعد ان هاتف طالبا مني انتظاره، و حين دخل طلب فورا ان نمضي فنتناول الغداء في مكان مريح، اعتذر لزوجته و فعلت مثله ثم ذهبنا بسيارتي الى مطعم اسماك يقع على بعد ثلاثة اميال من المدينة.

و في الطريق ، فيما كنت اقود السياره بنفسي لان السائق كان غائبا لسبب لا اذكرهحاول سعيد بطريقه ذكيه ان يوحي لي بانه يحب زوجته حبا عميقا ، و كان هذا كله تمهيد لما سياتي ، و يبدوا انه فكر مليا في طريقة يدخل بها الى الموضوع ثم اكتشفان ابسطها هو الافضل .

لم نكن قد بدانا الاكل بعد، حين اعتدل في جلسته و منح صوته تلك الرنة التي يعطيها الرجل حين يريد ان يبدو مخلصا و حاسما و موجزا في وقت واحد :

- نحن رجلان عاقلان يا استاذ صالح ، و ينبغي ان لا نسيء تقدير ذكاء كلينا ، ان المصادفة وحدها هي التي ستجعلنا شركاء في القضية التي ساعرضها عليك .

و كي لا اجيب قدمت له لفافة فاخذها و دقها على الطاوله و ابتسم.

- طريقتك غريبة في فتح العلبة ، لماذا تفتحها هكذا ؟

- كي اظل على معرفة بعدد ما تبقى من سجائري . انني ادخن كثيرا و اخشى ان اجد مفسي دون لفافة على حين فجاة ، فينتابني شعور بانني اعدوا في الشوارع و امام الناس دون سروال .

- ثم صارت عادة؟

- اجل.

انه موضوع صعب كما يبدوا ، و لذلك فهو يحرص على خلق جو من الصداقة الحميمة قبل الشروع في الحديث ، و حاولت ان اسهل له مهمته بالصمت ، و الابتسام مستشعرا قلقا غامضا كانني على ابواب عرض لا يقيم :

- استاذ صالح .. انني مثلك احب زوجتي ، و لست ادري كيف تشغلك هذه المسالة ، و لكنني اريد ان اسالك ، لو كانت زوجتك تمتلك ثروة كبيره .. فماذا تفعل ؟

و لم اكن اتوقع مثل هذا السؤال ، لم اكن في الحقيقة قد فكرت به من قبل ، و اهم من ذلك لم اكن اعرف الجواب الذي يريد لبتكئ عليه الى نقطة ثانية .

- ان ليلى هي وحيدة لاب ارمل سيموت في اسبوع ، هذا موعد طبي و ليس غير ذلك على الاطلاق، و في اسبوعين فقط سترث ليلى ثروة .

و حين لاحظ دهشتي وضع الامر في نصابه :

- انني احب ليلى و لست اريد ان افقدها بايه وسيله .

و مضى شوطا اخر :

- لا اريدها ان ترث هذه الثروة. هل تفهمني؟

- افهمك ، خصوصا اذا اردت ان ترثها بنفسك

و سحب كرسيه الى الامام و اتكا على الطاوله :

- لا تسئ فهمي ارجوك، و لكن معك حق . فانا الذي اسات شرح الموضوع برمته ، لنضع الامر كما يلي:
انا احب ليلى ، لا اريدها ان ترث ذلك المال كي لا يفسد علي كل شيء ، و لا اريد انا ان ارث ذلك المال .

و تبدى لي تلك اللحظة اذكى بكثير مما تصورت ، و اكثر التصاقا بتلك الانانية النبيلة التي تستعصي على الفهم .

- " قبل ان يتتزوج والد ليلى امها كان مغتربا في الارجنتين ،و الحقيقة انه جاء من هماك براسماله الذي بنى فوقه ثروته ، و قد ماتت والدة ليلى في وقت مبكر ، الا ان الوالد المفجوع لم يتزوج مره اخرى . و قد اوقف حياته على العناية بابنته التي كانت حقا وحيدته في هذا العالم ، و قد اوصى لها بالطبع بثروته كلها ، و اخشى الان ان يكون ذلك العجوز الطيب قد ارتكب خطا لم يتوقعه . فيدمر ابنته و سعادتها من حيث اراد مساعدتها ."

قلت له انني افهم قلقه ، فهبوط ثروه مفاجئة على امراه هو امر لا يستطيع اي انسان ان يضمن نتائجه ، و لكنني افهمته انني لست ارى ايه طريقه لمنع ذلك الارش عن الابنه ، و سنبدوا مضحكين لو اننا بذلنا المحاوله .

- انني اعرف ذلك كله و قد فكرت فيه مليا ، الا ان الاقدار و جدي حلا ما ، هو الذي من اجله طلبت مقابلتك.

و بدانا ناكل صامتين ، و لم استعجله لانني كنت اود التفكير بالامر ، انني لم اواجه قط مثل هذا الموقف ، واجهت عشرات من المواقف المضاده، و لكن ابدا لم يجئ انسان عندي كي اساعده في التخلص من ثروه. ثم ماذا يحدث في علاقتي مع ليلى التي كنت ارتبها باعتناء ؟

ان شيئا واحدا هو الاكيد الان : صنارته هي التي اصطادت صنارتي!!

- لقد استطعت ان اعرف ان والد ليلى حين كان شابا طائسا في الارجنتين،رزق بابن غير شرعي . و ابتسم ليجعلني افهم انه هو نفسع يشك في هذه الحقيقة ، ثم اكمل مرتاحا الى تلك الصفقة الصغيرة في امانة مثاليه :

- .. و مثل كل والد شرقي يريد العوده الى بلاده اعطى الابن اسما اخر ، و اعطى الام رشوة صغيره ، و قرر لكليهما مساعده دائمة و انزل الستار بهدوء على ذلك المشهد من المسرحية .

و وضع سكينته و شوكته على حافتي الصحن و اكمل :

منذ يومين وصلتني رساله مغفله ، منتزعة من قصاصات صحف ،دون توقيع ، تقول انه لا ينبغي علينا الاستئثار بالارث و اننا يجب ان نذكر الشاب الذي امضى حياته محروما .

و رمى الرسالة امامي و قال : من الواضح انه يريد رفع الدعوى ، و ان هذه الرساله هي تهديد اولي .. لديه بعض الرسائل من الوالد .. و لست ادري لماذا لم يوقع هذه الرسالة كانه يريد ان يوحي لي بان وراء الامر قوة ما .. على اي حال ، لماذا لا نستبق الاحداث ؟ لماذا لا تتولى القضيه انت و تدافع عن حقه ؟

و اصبت بقليل من الدوار ، و لكنني قلت له ان مثل هذه القضيه لن تكون الحل ،فالقضاء سيبت ان عاجلا او اجلا بالامر .

- ليس تماما ، انا واثق ان اوراق الصبي ليست كاملة ، انه امر يحدث دائما في مثل هذه القضايا ، كما تعلم ، و لدى ليلى اوراق مضادة .. ان ما نريده الان هو ان لا يتوصل القضاء الى قرار الا بعد فتره طويله ، انا واثق ان الشاب الارجنتيني هو مجرد افاك ، و انه سيقبل رشوه صغيره ليسقط دعواه ، و لكني لا اريد ان اعرض هذه الرشوه الا في الوقت المناسب ، نريد الان ان ندفع القضية الى ممرات طويله من التعقيد ، و لسنا نرغب في ايه تسويه الا بعد فتره طويلة ، ربما طويله جدا.

- لنقل حين اموت انا، او حين يحدث شيء غير عادي ، و عند ذاك فقط سيخسر الصبي .

و صمت قليلا و فكر فيما قاله باعتناء ثم وصل الى المرحله الاخيره :

- ان ذلك كله يحتاج الى محام لامع ،لا تربطه بنا علاقه وثيقه ، و يتمتع بامانه و سمعه تجعلانه يحجم عن استغلال قضيه من هذا النوع .

و فورا وصلت الى قرار :

- ساطلب منك يا سيد سعيد بضعة وعود ، كرجل شريف ، قبل ان نبدا ، و فيما عدا ذلك بوسعك ان تعتمد علي اذا كان ما ذكرته هو كل شيء.

و وقف ضاحكا و مد يده :

- كنت متاكدا اننا سنتفق يا صالح .

و ترك الرساله الموجزه المغفله معي ، كانت من كلمات مقطوعه من الصحف ، تحكي بايجاز و دون اي ايحاء قصه الارث و قصة الشاب الارجنتيني الذي نبع في الوقت المناسب .

***

و في الاسبوع التالي استكملنا اوراق القضية : كان ثمه سلسله من الوصولات الرسمية ارسلت من والد ليلى الى سيدة ارجنتينية منذ زمن بعيد ، ليس فيها اي ذكر لابن شرعي او غير شرعي ، ثم رساله عزاء الى الصبي ليس فيها الا برهان الا على شيء واحد هو ان الوالد كان ذات يوم يحب الام بصوره غامضه فريده .و كتبت الى الصبي الذي كان كما قالت الرساله المغفله يعرف القصه و الذي كانت الفكره تروقه الى حد بعيد ، و قالت رسالة الصبي انه تدبر بالاضافة للاوراق امر شاهدين او ثلاثة .و كان هذا يكفي الان لبدء القضيه . و لكن الوالد المريض لم يمت ، و هكذا لم يكن امامنا الا الانتظار . و لم اكن اعرف حتى تلك اللحظة ، ماذا كنت انوي تماما، كان يخيل الي انني ساجد طريقة لقلب الموضوع ، موضوع ليلى ، ثم انني كنت اعتبر الامر برمته عباره عن تحد مهني لا مناص من خوضه.

لقد ضربت الصدفة ضربتها الثانيه حين قامت ليلى بزيارة لزوجتي : كان سعيد في واحده من رحلاته التي لا تنقطع ، و عدت انا مبكرا للبيت ، و امضينا سهره عادية، شبه بارده ، و حين انتصف الليل طلبت مني ديما ايصال ليلى بسيارتي .

و لم نتبادل الا حديثا موجزا في الطريق، ثم اوقفت سيارتي و اخذت المصعد معها الى الطابق العاشر ، و امام الباب طلبت مني ان اتناول المفتاح عن الحافه العلويه ، حيث تركته الخادمة . كان الباب ذا اطار خشبي بارز ، و قد مررت اصابعي في الطرف ، فوقه ، حتى عثرت على المقفتاح فناولته لها، و قبل ان تفتح الباب لاحظت :

- انت اطول من سعيد ، انه يبدوا مضحكا حين ينط لبتناول المفتاح .

و تصافحنا ببرود و عدت الى البيت.

لقد انزعج سعيد اشد الانزعاج حين روت له زوجته ما جدث ، و اتصل بي خصيصا ليذكرني بان علاقتي بهما يجب ان تكون باردة، و اقترح ان امتنع عن القيام باعمال مهذبة من هذا النوع كي اجنب زوجته اي شعور بالصداقة تجاهي ، و قد رايت انه ، نظريا على الاقل ، على صواب .

و حين مات والد ليلى تولى محامى العائله امر تصفية الارث ، و في الوقت المناسب قدمت الاعتراض ، فاندفعت القضية الى اروقه شديدة التعقيد ، و بدات اللعبة المسلية تزيد من علاقتي بسعيد ، الذي كان يروقه ان يمر على مكتبي بعد عبوط الليل ، ليتحدث و يشرب و يضع خطط المستقبل .

و لست اذكر الان بالضبط متى جاءت ليلى اول مره الى المكتب مع سعيد . كانت غاضبة و لكنها تركت زوجها يشرح لي موقف العائله ،و يعدد الاثباتات التي تبرهن ان ذلك الصبي الدعي كاذب و لص ،و عرض علي في اخر الجلسه مبلغا من المال كي اخسر القضيه او على الاقل اتخلى عنها.

و كانت ليلى معجبه بموقفه ، و قد لاحظتها تتابع جدله مفتونه و فخوره و انتابني شعور غريب بسعاده غير مفهومة حين خطر على بالي ، فجاه ، انني استطيع تحطيم علاقتهما في دقائق لو نفضت الحقيقة ، امامهما بحذافيرها . و لكن هذا الشعور بالانتصار جعل امر اعلانه ثانويا .

و قلت لليلى انني ، بغض النظر عن احترامي لصداقتها مع زوجتي ، فانني لا استطيع ان اخذل موكلا استلمنني على ما يعتقد انه حقه و مصيره معا .

- ان لدي شيئا واحدا استطيع ان اعرضه امامكما : لن اكون مزورا ، و لن اكمل القضيه اذا كانت خارج نطاق العدل و الحق .

و قد فوجئت انا كما فوجئ سعيد بموافقة ليلى ، سعيدة على هذا العرض ، و في الحقيقه فقد كانت اكثر سعاده مما توقع كلانا ، فنهضت بقفزة مرحه عن مقعدها و مدت يدها نحوي و صافحتني :

- انا اعرف انك محام شريف ، و اقبل وعدك دون تحفظ.
لقد كانت واثقة تماما انه ، عاجلا او اجلا ، سيثبت حقها، و كان بوسعها كما يبدو ان تنتظر مطمئنه اذا كان النزال شريفا ، و قد اعطيتها انا الكلمة التي كانت تريدها ،فلم يعد ثمة ما تخشاه .

و حين خرجت مع زوجها من المكتب بدت صديقة حميمة تعتقد ان ما يحدث في قاعة المحكمة ليس هو الا معادلة حسابية اشارك انا من طرف اخر في وضع حلها الصحيح ، الذي هو بلا نقاش مصلحتها المحضة .

و قد توقعت ان تزورني منفردة فيما بعد ، فقد اضحت مهتمة جدا الان بتذكيري بوعدي ، ليس ذاك فقط ،بل كانت تريد ايضا ان تجعل من صداقتها الحميمة مع زوجتي و معي في ان واحد الرقيب الساهر الذي يعمل ، داخل ضميري لمصلحتها .

في الاسبوع الذي جاء بعد ذلك قابلتها مرارا في منزلنا ، و لكنها كانت توفر علي امر ايصالها، و لا اذكر انها تحدثت عن قضية الارث ابدا، الا حين جاءت الى مكتبي بعد ذلك وحدها لترجوني ان لا

اشجع زوجها على القيام بعمل احمق لمصلحتها ، كان يحاول اغرائي او اغراء الصبي بمبلغ من المال لنتخلى عن القضية .

- " انت تعرف كم يهتم بمصلحتي ، و لكنه لا يعرف والدي – انا الذي اعرفه و اعرف انه لم يرتكب عملا من هذا النوع – احيانا الاحظ ان سعيد يشك في الامر ، و قد يدفعه هذا الشك الى اغراء الصبي بالمال ، ارجوك ان لا تشجعه ، لياخذ العدل مجراه و انا واثقة من النتيجة ."

و وجدتني اقول :

- لو كنت مكانه لاشتريت العالم كله لك .

و تضرجت فجاه ثم ابتسمت ، و هزت راسها كانها تشكر مجاملة رسمية ، و دارت دورة واسعة حول الموضوع لتعود من حيث لا تدري ، الى جانبه الاخر :

- كيف حال ديما ؟

ان ذلك يوي بشيء كثير ، كثير جدا ...لقد اصابتها كلمتي في قلبها فذكرتها بزوجتي ، لقد اعتبرت كلمتي غزلا غير شرعي ،ربما ارقها ، و لكنها لم تستطع ان تقبلها على محمل رسمي و عادي ، لقد اعتبرتها رغم كل شيء غزلا لا يمنع شرعيته الا معرفتها بديما.

كانت ديما بالمصادفه تقوم بزياره لشقيقتها في بغداد ، و بدت فرصتي الكبرى التي لا يمكن لها ان تعوض .

- ان ديما في بغداد ، هل تعرفين؟ حين تكون ديما غائبة انقطع عاده عن تناول وجبات منظمة .

و صمتت ، حين انفتحت حواس الانثى فيها على وسعيها ، كشبكات التقاط هائلة متحفزة للاصطياد .
و مضيت :

- لو لم يكن سعيد يكرهني بسبب هذه القضيه اللعينة ، لدعوت نفسي للعشاء عندكما .

و ببطء و لكن بخوف و تردد ، قالت :

- انه مسافر .

- اذن لماذا لا نتعشى معا؟

- سيغضب .

و تنفست الصعداء ، وكففت عن السؤال ، ذلك ان الموضوع قد انتهى باسرع مما توقعت، و ربما دون ان تتوقع هي – كانت هناء قد غادرت المكتب فلبست معطفي ، و حين صرنا على باب المصعد

امسكت يدها و ادخلتها امامي ، و قدت سيارتي فيما كان المطر ينهمر بغزاره الى مطعم بعيد ، لم نتبادل كلمة واحدة ، و لكنني اقنعتها بشرب كميه من النبيذ اكثر مما ارادت ، و اكلنا بشهية ، و حين دعوتها الى الرقص لم تتردد ، و رقصنا بوقار ، و في المره التالية ضممتها الي ففقدت انتظام حطواتها ، و قالت فيما كانت قريبة من اذني و مشيرة الى خطواتنا :

- لقد خرجنا عن القواعد .

و قلت بهدوء :

- ان القواعد الجديدة لا تكتشف الا بالخروج عن القواعد القديمة .

و دفعتني بعيدا عنها بعض الشيء ، ليس كثيرا ، و قالت :

- انت تعرف كم احب سعيد.

- انني لا اطلب منك ان تحبيني مثله .

- ماذا اذن ؟

- بالنسبة لي ؟

- نعم .

فعدت و ضممتها الي و قلت لها دون ان اتركها تنظر الي :

- انني اريدك فقط .

و لم تقل شيئا ، كانت تفكر مليا بالامر ، و لكن بقلق غامض، اخذتها الى الطاوله و شربنا قدحي نبيذ دون مناسبة ، و انتهت فجاة الى قرار:

كلا يا صالح ، اننا نقوم بعمل سيء ،

و التزمت الصمت ، كنت حزينا حقا و قد جعلت ذلك يبدو اكثر مما هو في الحقيقة ، و اخذت تراقبني بهدوء و ما لبثت ان قالت :>>

- كان لا يجب ان تقول ذلك ، على الاقل لم اكن اتوقعه منك انت .

- انا اسف ان كنت قد جرحتك ، و لكنني ارجو ان تعتبري صفاقتي اطراء مخلصا لانوثتك.. انني لا استطيع ان اكون قريبا منك الى هذا الحد و لا افكر بان.. حسنا، اتعتقدين ان الامر بالنسبة لي هو

بسيط الى هذا الحد ؟ الا تعتقدين ان قوة اكبر مما بظنين هي التي دفعتني نحو امراة غير زوجتي منذ سبع سنوات ، ساعتبر دائما انني خسرت القضية الوحيدة التي يهمني ان اربحها .

و تضرجت.هناك طراز من النساء تثيرهن الكلمة العارية و تحطم كل مقاومتهن اكثر مما تستطيع اللمسة او تفعل ، انهن حين يستمعن الى الكلمة العارية يعتبرن ان اصعب حواجز العلاقة قد تحطم بل ان العلاقة العارية ذاتها قد حدثت فعلا و ان ليس هناك اي مخرج لانكارها.

لقد اخذتها الى السياره و صعدت معها الى الطابق العاشر ، و امام الباب وقفت اسالها بنظرات واضحة قرارها الاخير ، فقالت :

- ساقول لك لا ، مرة اخيرة ، و ارجو ان لا تشعرك هذه اللا باهاهة تغير في موقفك من قضية الارث .

و مددت يدي الى حافة الباب و تناولت المفتاح و انا اقول :

- ستربحين القضية انت ، قلت لا ام نعم، لقد اشتهيتك قبلها و الان ساظل اشتهيك الى الابد .

و فتحت الباب و خطت الى الداخل مترددة بعض الشيء ، و لحقتها دون ان اتوقف عن الكلام ، و حين جلست في الصالون احضرت لي بصمت كاسا من المارتيني ، و جلست على المقعد المقابل ، و قالت بهدوء :

- الان استطيع ان افهم لماذا تربح قضاياك دائما .

و ابتسمت ، ثم ضحكت و هي تدفع راسها الى الوراء ، فبدت ضجيعة تسخر من قدرة الرجل على امتلاكها ، و سالت و هي تطوي خجلها في ضحكتها حتى لا يستطيع الرجل ان يميز بينهما :

- هل فكرت جيدا؟

و قبلت هذا الحل دون نقاش ، لقد رمت المسالة على كتفي و اعتبرت نفسها في المكان الاقوى ، بالنسبة لها كان القرار اغلب الظن هو مزيج من اشتهاء لا يصد، و من صفقة قضائية صغيرة ايضا و من شعور صاعق انها انثى ما تزال تستعصي على الامتلاك من قبل رجل واحد ، و فوق ذلك كله من مصادفة مليئة بالتناقضات و الاثارة ، و مثل كل مصادفة ، فهي مغامره عابرة لا تترك في حياتها بصمات خطيرة .

و قد تم الامر بلا طقوس ، على ذلك المقعد الطويل في غرفة الجلوس ، و حين طحنتها اللذة القت براسها الى الوراء، و تصورتها لوهلة جثة .. و بدا لي ذلك التصور دون ضير ، فقد كان ذلك ، منذ الان هو الطريق الوحيد للخروج من حياتها دون ان افقدها و دون ان افقد ديما

و عاد سعيد مساء اليوم التالي ، و قد اتصلت ليلى بي لتقول لي ذلك ، كانها كانت تخشى ان ازورها ، و عرفت بعد ان وضعت الهاتف ، انها تتوقعني دائما ..

و لكن الامر بالنسبة لها كان اكثر من ذلك ، كانت الان تمتلك شيئا لا يعرفه سعيد ، و لا يمكن ان يعرفه ، لقد ارتدت الانثى فيها الى مواقعها الاولى الغامضة المليئة بالاسرار و الغموض المثير ، و صار سعيد بالنسبة لها رجلا لا يعرفها تماما، و بالتالي اكثر جدارة بالحب.

كيف يمكن للقانون ان يفهم ذلك؟ كيف يمكن له ان يعرف ان الحب الانساني لا يعني الانفراد، كيف يمكن ان يدرك ان ما فعلته ليلى لم يكن في الواقع الا دفاعا عن انوثتها امام الرجل الذي تحب حقا؟

و لكن الامر بالنسبة لي كان اكثر بساطة ، لقد حاولت ان اقول كيف استطاعت تلك اللحظات العابرة ، في النادي الليلي ان تنموا دون سيطرة من احد الى ذلك الحد.

ان الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ايها السادة ليست القانون ، ليست اي نوع من القانون ، لكن النساء ، اقول النساء ، لا المراة الواحدة ، لان المراه الواحدة سرعان ما تضحي عادة ، و كي نهز هذه العادة ، و نجعل منها شيئا ممتعا، فاننا مالزمون بكسرها.
ان ليلى الحايك لم تخن زوجها ، ستبدو هذه الجملة مضحكة للوهلة الاولى ، و لكن اذا كانت حقا غير صحيحة فان علاقة ليلى الحايك بزوجها حقا علاقة تعيسة ، و بماذا يمكن ان توصف علاقة يومية بين رجل و امراة الا بانها تعسة اذا كانت قيمتها كلها هي الفراش.

اننا حين نعتاد زوجاتنا و عشيقاتنا فان كمية الفراش في حبنا لهن تصبح كمية صغيرة ، و نحن حين نذهب الى الفراش مع امراة اخرى فاننا لا نعطيها حبا و لكن نعطي انفسنا اكتفاء من نوع لم يعد من اليسير الحصول عليه في فراش الزوج و الزوجة.

>ليلى الحايك لم تحبني . و انا لم احبها ، و قد ذهبنا الى الفراش تحت دافع من المصادفة و الاشتهاء و التغيير. و نحن لم نستعمل في علاقتنا حصة زوجها منها و لا حصة زوجتي مني ، و لكننا استعملنا القوة الفائضة التي افرزتها المصادفة و الشهوة خارج طوق العادة.

ان علاقتي بليلى الحايك جعلت من ديما انسانة اكثر معنى مما كانت و اقل عادية مما هي ، ان حبي لها لم يقل ، و لم يزدد بالطبع ، و لكنه اختلف ، و هذا شيء ضروري اذا اردناه ان يبقى .

ان الزوجة هي قيمة اجتماعية رائعة ، و لكن كي تظل انثى يتوجب علينا ان نعرفها اقل ، و كي نجعلها تتوقد يجب ان نحولها كلما مضت للفراش الى امراة اخرى ، امراة ثانية .

هل تفهمون؟

ان هذه المسالة لا علاقة لها بكمية الحب ، و لكن بنوعه و بتجدده فقط.

ان الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار ، و لكن ذلك القرار لا يعوض قرارا اخر في اعماق الزوج بان ينام مع امراة اخرى.

لم تكن علاقتي بليلى الم مصادفة توجت قرارين اتخذ كل منهما على انفراد في اعماقي و اعماقها ، و ربما دون وعي.

ان المصادفة ايها السادة، هي قيمة واقعية في حياتنا ، كالقانون و العدالة و الجريمة ، و قد جاءت تلك المصادفة كي تعطي ليلى فرصة لاثبات انوثة مسلوبة هي سلاحها الوحيد في اعماقها امام زوجها، و جاءت لتعطيني دون ان اقصد تجديدا لعلاقتي بزوجتي .

و رغم ذلك فهذا الشيء لا يمكن تفسيره بمعادلة حسابية باردة ، و انا ادفع الان ثمنا عادلا لهذه المصادفة غير المعترف بها، و قد اكتشفت ، انا الذي غشت سنواتي العشر الاخيرة بين مواد قانون حسابي صارم ، ان هذه المصادفة هي قوة مقررة ، فوقنا جميعا لانها تلبي حاجة في اعماقنا جميعا ، لها فعل الواقع.

لست اذكر شيئا بارزا حصل بعد ذلك.

لقد مضت القضية تتعقد و تزداد تعقيدا في اروقة القضاء ، و لسنا ندري الان كيف نبع عدد لا يحصى من الشهود.جاءوا من اعماق الماضي يتحدثون عن والد ليلى الحايك ، بصوره متعادلة ، و في الوقت ذاته لم تنقطع علاقتي بليلى ، على الرغم من انها لم تتطور .

لم يكن سعيد الحايك حتى على شك في علاقتنا ، ذلك ان ليلى لم تكن تحب رجلا اخر امامه ، بل كانت تحبه بصورة اكثر عمقا و تمكنا ، و لم تكن ديما ايضا تشك باي شيء ، لانني كنت و ما ازال الرجل الذي يحبها بصورة لا يمكن ان تفتر ، لقد كان الخطر الوحيد الممكن هو فقط في ان تنمو علاقتي بليلى وراء تلك المغامرة المصادفة . ان اضحي بالنسبة لها اكثر من مجرد وسيلة ، و ان تضحي بالنسبة الي مجرد عادة – اي حب.

سيبدو غريبا عليكم ايها السادة ان لا اجد فرقا بين العادة و الحب، و لكن الامر لو تفكرتم به قليلا ،هو ذلك.. و لذلك كنت اقول قبل قليل ان الفراش لا يكون عادة ، فهو شيء لا علاقة له بالحب ، و ان الحب الحقيقي ليس فراشا فقط.

لقد مرت ايام كثيره خلال الاسبوعين اللذين سبقا اعتقالي لم اشهد فيهما ليلى الحايك، كان سعيد في المدينة و كانت تحرص ان تقضي كل اوقاتها معه، و لست اذكر الان انها زارتني خلال هذين الاسبوعين الا مره واحدة، و قد جاءت برفقته بناء على نصح المحكمة لهما بان يحاولا الوصول معي الى صلح.

لقد جلست هناك مع زوجها ، كانها لا تعرفني الا كما يعلم المرء محامي خصمه فقط، و قد وافقت انا بدوري على صلح و لكني طلبت لموكلي ثلثي الارث ، و قد فوجئت ليلى و افتعل سعيد الحايك المفاجاة ، و لكنني كنت اعرف انه شديد الرضى ، و غضبت ليلى و شرحت لها انه ليس بوسعي ان

ارفض شروط موكلي سواء اعتقدت بعدالتها او لا ، و ان جل الذي استطيع ان انصح به هو متابعة الدعوى في المحكمة .

و لاول مرة ذكرت ليلى شيئا عن وثيقة تستطيع ان تحسم القضية كلها ، و قالت ان تلك الوثيقة اضحت الان بحوزتها ، و انها ارادت الصلح ليس لانها تعتقد بصحة ادعاءات الوريث ، و لكن لانها لا ترى خيرا في ان تختصر الوقت ،و ان يخرج الشاب الارجنتيني الذي كان لسبب من الاسباب محط اهتمام والدها بمبلغ ما من الارث

و نظرت الى زوجها استعين به ، الا ان وجهه ظل جامدا ، فقلت لليلى انني مازلت عند وعدي ، و اذا استطاعت وثيقتها ان تحزم الامر ، فعليها ان تقدمها للمحكمة ، و انا اقبل بالنتائج.

و عند ذلك قالت ليلى ان الامر يحتاج الى شيء من الوقت ، و انها اخطات حين اعتقدت ان الشاب الارجنتيني يستحق العطف، و سترفض الان اي حل غير ذلك الذي ستقرره المحكمة .

و قال سعيد الحايك شارحا : لقد حصلت ليلى من حيث لا ادري على وثيقة مهمة ، تستطيع حسم القضية ، الا انها لم ترني الوثيقة حتى الان ، و لم تقل لي كيف حصلت عليها ...

و ابتسمت ليلى بثقة المراة التي تحتفظ لنفسها بسر رهيب ، و انا الذي اعرف هذه الابتسامة ، اعرفها لانني شريك في واحدة مثلها ، فهل اكون الان ، يا ترى ، ضحيتها ؟ ان ليلى يروقها ان تكون مطوية على سر، امام زوجها تحتفظ لنفسها بسري، و امامي الان تحتفظ بسر هذه الوثيقة الطارئة ، لم يكن زوجها اقل حيرة مني ، و بدت لي تلك اللحظة مستمتعة حتى الثمالة حين نجحت في وضعنا معا داخل قفص، كحيوانين حبيسين يجهلان الحقيقة .

و قلت لها محاولا استدراجها :

- دعيني ارى تلك الوثيقة لاقدر لك قيمتها في دعواك .

و ابتسمت، تلك المراة المتمنعة التي يروقها ان تكون صعبة على الامتلاك:

- لن تلعب هذه اللعبة معي ، انت الخصم الذي يريد لموكله الثلثين ، و ستخرج من هذه القضية كلها بايد بيضاء .، تصفر.

و استدركت :

- هل اتفقت مع ذلك الافاك على مبلغ مقطوع ام على نسبة مئوية من الارث؟

- على نسبة مئوية مما استطيع تحصيله له.

- ايها المسكين ! اذن ستخرج بلا اي قرش.

و تحديتها :

- لا تلعبي على اعصابي ، ليس ثمة وثيقة في الامر ،

و هزت راسها باسمة :

- سنرى.

و سالت زوجها :

- اتعتقد حقا يا سيد سعيد انها تمتلك تلك الوثيقة ؟

- لست ادري .

- لو رايت تلك الوثيقة لصار بمقدورنا ان نصل الى صلح.

و لكنها نهضت ، و حين شاهدت خصرها داخل ذلك الثوب الاسود الضيق، و ابتسامتها الغامضة ، اكتشفت حقا كم يمكن للمراة الغامضة ان تكون مثيرة حتى لو كانت تطوي تحت غموضها وثيقة لا تهم احدا.انها تعطي نفسها دون ان تعي تماما ، تلك الانكماشة الانثوية الفريدة ، التي تجعلها تبدو ابعد من ان تؤخذ، و بالتالى اكثر جاذبية و نداء ، و حين كنت اودعهما امام طاولة السكرتيرة ، في الخارج، قال لي سعيد الحايك انه يعتزم السفر غدا لمدة لا يستطيع معرفتها الان ، و رجاني ان اقدم النصح لليلى بصفتي خصما شريفا ، اذا ما احتاجته اثياء غيابه.

و سافر سعيد كما قال صباح اليوم التالي ، صباح اليوم الذي حدثت فيه الجريمة ، و طلبت من هناء في الظهيرة ان تصلني بليلى ، التي قالت لي انها تتوقعني هذا المساء ، في تمام السابعة .

عند الظهيرة اشتريت زجاجة عطر من النوع الذي تستعمله، و وضعتها في درج مكتبى .

في السادسة ، و هو الموعد المحدد لانتهاء العمل في مكتبي ، انهيت اوراقي و غادرت المكتب، و قمت بجولة طويلة في سيارتي ، و تذكرت انني نسيت زجاجة العطر ، فعدت الى المكتب ، كان مغلقا بالطبع ، ففتحته ، و ذهبت الى غرفتي ، و حين كنت احاول وضع الزجاجة في جيب معطفي الداخلي ، دخل البواب ، الذي لفت نظره الضوء في غير وقت العمل ، و ما لبث ان اعتذر ، و قبل ان يخرج ، راني البس قفازي .

نزلت ، و قدت سيارتي ، و اوقفتها في مكان بعيد، و اخذت المصعد الى الطابق العاشر .

قرعت الباب مره او مرتين فلم اسمع جوابا، شعرت بالغيظ، و اكتشفت في لحظة واحدة ان كل العالم الذي بنيته في راسى هو وهم محض ، و كي اوضح لليلى انني جئت ، افرغت علبة سجائرى ، و كان فيها خمس لفافات ، من ثلاث ، و حاولت وضعها على حافة الباب كي تلمسها حين تجيء لتاخذ

المفتاح، ثم اكتشفت ان ذلك شيء لا يبرر فيما لو شاهدها اي انسان هناك،فاستعدتها و القيتها امام الباب كانما عرضا.

و حين اخذت المصعد و خرجت من البناء رايت ان ما فعلته كان عملا صبيانيا ،و ان زوجها قد يرى العلبة ، فعدت ادراجي .

و فيما كنت انتظر المصعد ، تجمع معي ثلاثة رجال معي بانتظاره ، و شعرت بالحرج ، ثم ان الامر كان مجرد وهم ، فزوجها سيغيب اسبوعا على الاقل ، فتركت المكان مرة اخرى.

قدت سيارتي على الشاطئ ، و لاننى كنت عائدا الى البيت ، فقد قذفت بزجاجة العطر ، مغتاظا و حائرا ، الى البحر ، ثم اشتريت من مكان قريب ، علبة سجائر اخرى .

كنت مضطربا و غاضبا حين فتحت الباب ، و لم اتناول العشاء، و مضيت صامتا الى فراشي ، و لم اتبادل اي كلمة مع زوجتي .

و في التاسعة و النصف صباح اليوم التالى ، اوقفت بتهمة قتل ليلى الحايك .

امضيت الليلة الاولى في حياتى مسجونا في غرفة ضيقة ، ليس فيها الا لوح خشب مرفوع على اربع دعائم ، و مغطى بفراش رقيق ، و مقعد.تجولت من الحائط الى الحائط واضعا يدي في جيبي ، محاولا ان اكتشف مكاني بالضبط.و لم اكن استشعر قلقا ، و لكن نوعا من الغضب فقط.و كانت المفاجاة هي التي هزتني و ليست التهمة . ثم انني لم اكم معتادا النوم مبكرا .

كان المستقبل مازال حتى تلك اللحظة ، يعني شيئا .و كنت اقيس وضعي في تلك الغرفة البعيدة عن كل شيء ، بالمقارنة مع اطلاق سراحي .الذي كنت متاكدا منه ، و كان غريبا حقا ان اجد نفسى في موقف ليلى تماما ، اعني في طرف مسالة حسابية يقوم شخص ما على الطرف الاخر و لا اعرف من هو بحلها معي . معركة شريفة بوسعي ان انتظر مطمئنا نتائجها.فقط لو اعرف بالضب من هم خصمي.

لقد قررت ان اعترف بعلاقتي غير المشروعة بليلى ، هذا شيء لم اكن قد اكتشفت اي طريقة لتجنبه، و بدا لى انني سادفع ثمنا غاليا لذلك الاعتراف. و انني لن افقد بتعده زوجتي فقط، و لكن سمعتي ايضا ، التي تعتبر ، في مهنة مثل مهنتي، اهم بكثير من الكفاءة.

و لست ادري متى غفوت، و لكننى اعرف انني حين فعلت ، لم اكن قد توصلت بعد الى تقويم كامل ، و حقيقي لوضعي،فالعزلة ، على الرغم من قصرها، و فقدان اي تفاصيل ، و عدم معرفتي الصحيحة بليلى و بزوجها ، و بظروف حياتهما، كانت تحول دون اكتشاف موقعي من هذه المسالة.

و قبل الثامنة ، اخذت بحراسة ملفتة للنظر الى غرفة المحقق من جديد حيث اصطف ثلاثة رجال اعرف اثنين منهم فقط، بانتظاري .

لقد قدمت القهوة اولا ، و سمح لي بالتدخين، و كان الرجال الثلاثة يبتسمون كلما تلاقت ابصارنا عمدا او بالمصادفة، و كانت هذه المقدمة معروفى بالنسبة لى ، و قديمة جدا ، و لكنها مفيدة للطرفين، و اخيرا بدا الرجل الذي لا اعرفه يتحدث و كانه في سهره و ليس في تحقيق ، كان يدخن و هو يذرع الغرفى جيئة و ذهابا واضعا يديه وراء ظهره ، واقفا بين الفينة و الاخرى ، و لفافته تتدلى من شفتيه، كضيقا عينيه ليتجنب دخانها الثقيل ، اليفا و عائليا و منطقيا بصورة لا تبدو، من فرط التجارب ، الا مخلصة.

- نحن اسفون جدا يا استاذ صالح، لقد اضطررنا ان نمنع عنك المقابلات ، لقد عاد السيد الحايك من رحلته امس ، و اراد ان يقابلك ، و تستطيع ان تفهم لماذا منعناه ، اننا لا نشعر بالاسف هنا ، و لكن فقط حين منعنا عنك زوجتك.

و نظر الى المحققين نظرة عابره ، كانه يستشيرهما في اهلية هذا المدخل ، ثم اكمل :

- جاءت السيدة زوجتك مع الاطفال

و نظر الى الارض و بدا فورا تعسا :

- كان منظرهم جميعا محزنا حقا .

و قلت كي ادعه لا يكمل هذا الطريق :

- و لكن يا سيدي لا استطيع ان ارى مبررا لمنع المقابلات ، في هذه المرحلة على الاقل. كنت اود فعلا مقابلة السيد الحايك، لماذا منعتموه؟

انه زوجها كما تعلم ، ثم انه في حالة سيئة ، لقد حاول الانتحار بعد سماعه النبا ، و لكنه انقذ في اخر لحظة.

- و زوجتي ؟

لقد اقتضى استكمال التحقيق هذا الاجراء..

و لم استطع منع نفسى من العودة الى الموضوع :

- اخشى ان تكون قد فقدت اعصابها.

- ليس تماما ، انها واثقة انه لا علاقة لك بالامر ، حتى انها كانت تنوي ان تقول ان علبة السجائر ليست لك، و لكنها متالمة لان الحادث ، حتى لو ثبتت براءتك بعده ، سيلحق الضرر بعملك ، و بسمعة العائلة .

و فورا قررت ان انكر علاقتي بليلى ، ليس من اجلى ، و لكن من اجل زوجتي ، لقد دخلت الان في القضية و صار اعترافي بعلاقتي غير المشر وعة بليلى خسارتها ايضا ، و حتى لو ثبتت براءتي المطلقة من الجريمة فان مثل هذا الاعتراف لن يقضي علي و على مستقبلى فقط ، و لكن على ديما ايضا ، و الاطفال ، و ذلك الحب الغريب ، الذي لا يصدق و الذي اكنه لها .

و سالت :

- ان ما يهمني ان لا يكون الحادث او انتم قد اوحيتم لها بان علاقة غير مشروعة كانت تربطني بليلى ؟

و تبادلوا النظر بصمت ، ثم تولى رجل اخر الجواب :

- في الواقع سالناها عما اذا كانت تعتقد بوجود مثل هذه العلاقة ، لقد غضبت اشد الغضب ، و وجهت لنا بعض الاهانات .

و ابتسم متسامحا و ناول الحديث لجاره :

- و ليست لدينا اسباب لمثل هذا الاعتقاد ، كل الذين يعرفونكما يستبعدون هذا الاحتمال ، حتى زوج ليلى الذي حاولنا اقناعه بهذا ، ان سمعتيكما ...

و صمت - او واصل الكلام - لست اذكر ، و لكنني كنت قد انتهيت الى قرار ، لن اعترف بعلاقتي بليلى ، اولا لان تلك العلاقة ليس لها ادني ارتباط بالامر كله ، و ثانيا لان ليلى لا يجب ان تدفع ثمن اعترافي الذي لن يحل اللغز باي حال من الاحوال ، و ثالثا لان مثل ذلك الاعتراف سيدمر ديما و الاولاد و انا ، و الى ماذا سيؤدي ؟ انه ليس ورقتي الرابحة في معركة براءتي ، فهو يثبت امكانية مفاجئة لحدوث الجريمة و لا يثبت عدم علاقتي بتلك الجريمة .

و سال المحقق الاول الذي كان قد اجرى تحقيق امس السريع :

- هل نبدا ؟

و لم ينتظر جوابا ، فقد جلس وراء مكتبه و ثبت نظارتيه و فتح اوراقه:

- ما هي علاقتك بليلى الحايك ؟

- انها صديقة قديمة لزوجتي ، تلاقينا مصادفة في ناد ليلي ، و لست اذكر الان كم مرة رايتها بعد ذلك ، لقد زارتني مع زوجها عدة مرات في مكتبي بشان قضيه ارث العب انا فيها دور وكيل الخصم.

- و ماذا كانا يريدان منك ؟

- اقناعي بالتنازل عن وكالة الخصم.

- هل عرضا رشوة ؟

- الزوج عرض ، و لكنني رفضت .

- و الزوجة ؟

- الزوجة قبلت وعدا مني ان اكون قانونيا تماما و شريفا .

- لقد زارتك الزوجة منفردة بعد ذلك ، لماذا ؟

- كانت تخشى ان يقوم زوجها باغراء الخصم ، و كانت تريدني ان احول دون ذلك .

- مقابل ماذا ؟

- ليس مقابل اي شيء ، و لكن التزاما بالوعد الذي قطعته لها ،

- هل كنت واثقا من حق موكلك في القضية ؟

- ان المحاماة لا تتعامل الا بالوثائق و ومواد القانون ، و على ضوء هذين الامرين ، كان يتوفر احتمال ما .

- الم تعرض عليك السيده الحايك في اية مره من المرات ان تتخلى عن القضية مقابل رشوة ؟

- كلا ، و لكن في اخر مره زارتني مع زوجها ، كانت تبدو راغبة في المصالحة .

- لماذا ؟

- لانها ملت متابعة الموضوع ، كما اعتقد ، و لانها رات ان لا مانع من خروج موكلي بحصة صغيرة .

- و هل شجعتها انت ؟

- كلا .

- لماذا ؟

- قلت لها ان موكلي في حالة مفاوضات ، لن يقبل بغير الثلثين ،

_و هل اشترط فعلا موكلك هذا الشرط؟

- كلا

- فلماذا اذن عرضته عليها ؟

- كنت اريد مصلحة موكلى .

- على الرغم من وعد الشرق الذي منحته لها ؟

و صمت و بدات كتابة مطولة ،ثم قدمت لي لفافة ، و حين اشعلتها لاحظت ان يدي اخذه في الارتجاف ، لاول مرة منذ بدات تلك القضية ، و لا شك ان ثلاثتهم لا حظوا ذلك ، فتبادلوا النظر ، ثم بدات الجولة الاخرى :
- حين عرضت على ليلى و زوجها ان الخصم كان يريد الثلثين ، هل كنت تعتقد انهما سيوافقان؟>>

- كلا

- اذن لماذا عرضت هذا العرض؟

صمت ، مره اخرى ، ثم كتابة ، و سؤال آخر :

هل تعتقد ان ما يتوفر لديك من اوراق ووثائق كان كفيلا بانجاح القضية لمصلحة موكلك ؟ و فكرت قليلا ثم قررت :

- كلا.

ماذا كانت غايتك من مثل هذا العرض ؟

- صمت ، كتابة طويلة ، تبادل نظرات ، لفافة اخرى اظهرت اننى اطفات لفافتي بعد رشفتين فقط ، ثم نقلة واسعة :

- هل هذه العلبة لك ؟

- اجل .

-هل كنت تزور السيدة الحايك تلك الليلة ؟

- كنت احاول زيارتها ، لكني لم اجدها .

- قلت امس انك كنت تشرب القهوة على الشاطئ ؟

- كنت اقصد الفتره التي سبقت زيارتي للسيدة ليلى .

- و لماذا زرت الضحية ؟

- لمتابعة الحديث عن الارث ...

- هل طرأ أي جديد على هذه القضية منذ زارتك مع زوجها ليستلزم منك زياره لها ؟

- كانت تحدثت عن وثيقة حاسمة و كنت اريد تقويمها .

- هل كنت تعرف ان زوجها غائب ؟

- نعم

- ما هو وضعك المادي ؟

- انني اجتاز بعض المتاعب الآن ، و لكن هذا شيء عادي عابر .

و مضت لحظة صمت ، ثم قذف المحقق امامي علبة السجائر و سأل :

- كيف سقطت هذه العلبة منك ؟

- لقد رميتها لانها كانت ..

و كنت اريد ان اتابع و اقول لانها كانت فارغة ، الا انني لمحت من جانبها المقصوص لفافتين فتوقفت ، و فجاة انفتح باب مغلق في جبيني ،و بين دفتيه تكشفت لي صحاري مجهولة بلا حدود.مستنقعات من الرمل الشفاف و أنا غارق فيها الى عنقي ، و اخذت الغرفة ، والرجال ، و الايام الماضية ، و كل شيء في هذه الحياة يدور في دوامة بلا قرار ، اعصار شيطاني دق نفسه كلولب فولاذي في جمجمتي ، و اخذت اسمع صرير زنزانات تمتد الى النهاية ، و زعيقا و بكاءً و قرع طبولٍ مجهولة ، و نباحا و حشياً ، و عويل رياح مجنونة ، و الها اسمه المصادفة يقهقه ملء فكيه العاريين ...

ووراء المحققين الثلاثة ، و القانون و الجدار و الكلام كله ، حلس ذلك الاله على عرش دموي صاخب ، كان الان قد صار خصما ، و تكشف لي في لحضة كلمح البرق ، انني انازل شيئا فوق القانون و المنطق و لكنه راسخ مثلهما ، حقيقي اكثر منهما ، لانه – ببساطة – واقع مثلهما و ربما اكثر . اله اسمه المصادفة ، و لست انا الذي يستطيع فك اساري من اظافره الكريهة ، و لكن صدفة اخرى فقط.

و فيما كنت اسمع عبر جدار كثيف من الاعاصير ، كلاما غير مفهوم ، و اسئله تعاد و تكرر و تصرخ و تدق على الطاولة ، و تنهال على وجهي ، كان هرم آخر من الصخب يرتفع بسرعة لا تصدق في اعماقي : عشرات الالوف من العبيد يحملون كالنمل حجارته الدقيقة و يكومونها في صخب و عويل تحت سماء من القهقهات الراعدة ، و في وسط كل شيء كان الشاهد الوحيد صريعا مضرجا بالدم في غرفة مغلقة .

و اطبقت شفتي ، لاحبس الكلام المجنون ، اطبقتهما في وجه كل شيء ، تاركاً القضية كلها التي حدثت و انا مطبق شفتي تكمل رحلتها في عالم يستعصي على الضبط.

قال المحقق :

- ان الصمت لن يساعد في حل القضية .

انتظر الجواب ، و لكن الاله الجالس وراءه مضى يقهقه ، جاعلا منا كلينا في تلك الغرفة المغلقة سخرية مضحكة تقع كلها خارج الموضوع.

اتفهمون ايها السادة :

ان المعركة لم تكن معكم ، و لم تكن مع القانون ، و قد اخترت النزال العادل الذي يقع وراء منصاتكم و اقفاص الاتهام ، و تركته يحاكمني وحده.

و مضى الرجل امامي مصراً على معقده :

- حتى لو صمت، فلدينا كل جوانب الحقيقة ، انت رجل مشهور يا استاذ صالح ، و القضية رهيبة ، كثير من الناس شاهدوك تلك الليلة و قد جذبتهم الفضيحة الى الشهادة من تلقائهم ، بعضهم ليساعدوك و بعضهم ليقولوا الحقيقة ... و لكن لدينا من كليهما اوراق لا يحصيها العد.

و اطبق صمت ثقيل . و تبادل الرجال النظر في حيرة مكتومة .

- لعلك تريد ان تستريح ، او ان تفكر في شيء اخر تقوله ، انت رجل ذكي و شهير و تعرف القانون جيدا ، بوسعك ان تكون اذا شئت معينا للعدالة كي تاخذ مجراها ، او عائقا صعبا امامها ، و وحدك الذي يقرر .

و قاموا جميعا و بقيت جالسا ، غارقا في ذلك المدى المجهول الذي لا يستطيع اي رجل يعتقد ان العالم مضبوط في قفص معرفة ابعاده و معناه ، نحن الان نلعب لعبة مضحكة ، نقيس العالم كله بمسطره اتفقنا عليها دون مشاورته ، نمنح الظواهر كلها اسماء و اوصافا دون ان نعرف ما هي، ما هي حقيقتها و حوافزها ، ثم نعتقد ان ذلك كله قد مكننا من الحقيقة كلها . نحن اغبياء ايها السادة ، شديدو الغرور و الصفاقة ، و لم اكن لاستطيع ان اقول ذلك كله لكم و انا الذي اعرف كيف تضحي

النصوص في حياة الانسان الها بدائيا جديدا يفسر كل شيء و يحكم على كل شيء، فاثرت الصمت تاركا الهكم القزم الكسيح الذي نصبتموه على قمة هذه الحياه يصارعها وحده .

اما انا فكنت اعرف اني مثلكم خارج الموضوع كله .

لا .. لم اكن اجهل معنى القرار الذي اتخذته ، و لم اكن احاول ـ كما قال الادعاء فيما بعد ـ لعب لعبة ذكية ، لقد كنت ادرك قراري و نتائجه ادراكا كاملا ، بل انني اجرؤ على القول اني في تلك الحظة على الاقل ، كنت ادرك معناه اكثر من اي انسان اخر.

لقد عشت كل عمري بين مواد القانون .. ليس ذلك فحسب ، بل تعرفون جميعا انني كنت اجيد استعمالها لخدمة دفاعي في اية قضية ، ان الاعتراف الان بانني كنت في احيان كثيرة انجح في تبرير وجهة نطري بمواد قانونية وضعت لتبرير وجهة نظر معاكسة اعتراف لا يضيرني .

و لكن تلك اللحظة بالذات كنت بين فكي كماشة قوية طاحنة ..

فانا المتهم ، و انا الذي ينبغي ان يدافع ، و بغض النظر عن ان مبدا الدفاع ذاته في قضية تتعلق بي ، من هذا النوع كان غير منطقي ، فانني استطعت منذ البدء ان اشم بوضوح اطراف الفخ الحديدي الذي اطبق علي كما يطبق فخ صيد الضباع على كلب طريد في سهوب الجليد.

لقد عرفت تماما ان لا فرار .. و عرفت انه سواء اكنت ضحية مجرم تفوق على كل احتياطاتي و اوقعني ، ام كنت ضحية شيء لا يعترف به القانون اسمه المصادفة ، فان الهروب من الفخ اضحى مستحيلا...

ثم ماذا ايضا ؟

لقد كنت انا جزءا من الجريمة ، رضيت ام ابيت ، كنت حجرا في ذلك البناء الدموي ، استخدمت من قبل قوة مجهولة استخداما بارعا ...

هل كانت حقا قوة مجهولة ؟!! لم اختر بنفسي ـ لسبب فوق قدرتنا جميعا ـ الدخول فيه و لعب دوري الذي انتهى تلك النهاية الفاجعة ؟ الم اخط بنفسي الى القصة دون اي دافع خارجي ، اكان من الممكن ان يتم الامر على الصوره التي انتهى اليها لو لم اكن موجودا ، و لو لم اختر ذلك الدخول الغريب في بنيا ن الجريمة الدموي ؟

و على اي حال .. كان المحققون قد احتاروا قليلا امام صمتي ...

و لكن القانون قد وضع لكل حالة علاجها وفقا لمسترطه المغروره التي تتصدى لقياس العالم و الناس كيفما كانوا و اينما كانوا..

و هكذا قرروا ان يجدوا شخصا اخر يتحدث عني !

لم يجد اول محام عينوه ليدافع عني اي شيء يقوله للمحكمة حين وجه بغزارة الدلائل ضدي من ناحية و بصمتي من ناحية اخرى ، كان على اي حال محاميا مبتدئا اراد ان يخطو الى عالم العمل فوق سمعتي ، منتهزا تلك الفرصة الغريبة التي تعطى باسم القانون لرجل يرى ان مهمته هي البحث عن مخرج لرجل اخر من مازق يعرف عنه اقل ، و ما لبث هذا المحامي ان رفض اكمال مهمته.

و حاول محام اخر لم اكم قد سمعت عنه قبل ذلك اليوم ان يتولى الامر ،و قد صرف ساعة كاملة في زنزانتي يتكلم بطيبة صبوره عن حق الانسان في الحياه ، و في الدفاع عن نفسه ، و كان طريفا حين اقترح علي ، بعد ان اعيته الحيلة ان يسالني اسالة لا احتاج في جوابها الا ان اهز راسي نفيا او ايجابا ، و لما فشل في هذه اللعبة الطريفة ايضا ابلغني ، و هو غاضب محمر ، انه يقبل التحدي و سيواصل مهمته الى نهايتها الغامضة.

كنت قد وضعت في زنزانة منفرده ، شديده القذاره و مظلمة بعض الشيء ، و ما لبثت ان تغيرت حياتي كلية ، و استطاع ذلك الشيء الرهيب الذي يعيش فى اعماق كل انسان و الذي نسميه اهليته للحياة ان يعيد ترتيب القيم و البديهيات في راسي بصورة تتكيف فيها مع ظروفي الجديدة ، و شيئا فشيئا تضاءل العالم الخارجي ، و كاد يختفي ، بكل ما فيه هو الاخر من بديهيات لا يمكن استعمالها في زنزانة .

و قد مضيت صامتا ذات يوم بين حارسين ، الى حيث قابلت زوجتي و اطفالي من وراء شباك حديدية ثقيلة ، كانت ديما منهكة و حزينه و محطمة ، و بدا الاطفال مدهوشين قليلا ، و حين تمسكت بالشبك ، قربت ديما شفتيها الباردتين و قبلت اصابعي و اخذت تبكي ، و يبدو انها رفضت ان تتحدث ، او تلفظ اي كلمة ، لانها كما اخمن ، قد تعرضت لضغط طويل من المحققين لحثها على اقناعي بالكف عن الصمت ، الامر الذي جعلها تعتقد ان وراء صمتي توجد خطة ما لا تعنيها و ليس من اللائق افسادها .

لقد قاومت بقوة لم احتج الى مثلها طوال حياتي ،ان احكي كلمة لزوجتي او ان اترك دموعي تسقط امامها ، و فقط حين اخذوني بعيدا عنها اطلقت لعيني العنان .

و كانت المحاولات لحملي على الكلام لا تكاد تنتهي ، و اعلن المحققون عجزهم ، و كذلك الطبيبان الذان احضرا لفحصي و اقناعي ، فيما ازداد اصراري الصامت على ان القضية برمتها لا يمكن ان تشرح خلال كلمات فقط .

لقد قلبت في راسي طوال فتره وجودي في السجن كل الاحتمالات التي كان من الممكن ان تطرا. و اكتشفت تماما ان قصة علاقتي بليلى لا يمكن ان تساعد في تخفيف الاتهامات ضدي و لا يمكن ان تكون الا قصة اخرى تضاف الى الجريمة ، كمشهد جانبي يهم الفضوليين ، و يعطي للقضية ابعادا مثيره ، و ليس من الممكن ان اشرح للقضاء حقيقة قضية الارث ، فلست املك اي اثبات لصحة اقوالي ، و حتى لو ساعدت تلك الحقيقة على كشف جانب من الموضوع فانها لا تفسر شيئا ، ثم انها كافية لتحطيم حياتي ، بما يشبه القتل .

لقد سرت قانعا بان الذي رتب القصة كلها هو " شيء" اكبر من تسلسل الحوادث المنطقي ، و ان البطل الوحيد فيها هو قوة لا يستطيع القانون الاعتقاد بوجودها الا اذا جاءت لتثبت بطلان شيء حدث و ليس حين تكون هي ذاتها وراء شيء يحدث.

و ثبتت عزلتي و قيمي الجديدة هذه الاستنتاجات ، فان انقطاعي عن الناس و عن الحياه اليومية التي عشتها و يعيشها الناس حعل المعاني العادية التي نعرفها عن الحياة تتراجع رويدا رويدا و تذوب امام نمو قيم جديدة .

من نحن ايها السادة؟

ماذا نفعل ؟

ماذا نريد ؟

لماذا نحن ؟

اسئلة نطرحها دائما و نحن على قيد الحياة ووسط صخبها ، و لكنها اسئلة تتراجع في غمار حركة اليوم و الدوران اللانهائي لايامنا جميعا ، و ليس ثمة مناص من مواجهتها حتى الاعماق حين يكون الانسان منفردا معها تماما .

لو كانت براءتي تعني شيئا لكان من المحتمل ان تتراجع تلك المواجهة الصارمة للاسئلة المقلقة ، و لكنني ، حتى لو برئت ، فساكون قد دفعت ثمنا غاليا جدا لما هو حقي المحض، انني العب ورقتين خاسرتين ، مع قوه مجهولة حكمت علي مسبقا بارتكاب جريمة لم انفذها .

و حين عقدت الجلسة الاولى كانت القاعة مزدحمة، و سجلت لي صور لا يحصيها العد، و تلاقت عيناي حين حدقت الى الصفوف الامامية بعيني زوجتي و سعيد و هناء و المحامي الاشيب و وجوه عديدة اعرف بعضها و لا اذكر بعضها الاخر .

كانت الاستجوابات دقيقة ، و ذات ايحاءات ليس بوسع الكثيرين ممن لم يتمرسوا بالمهنة ان يعرفوا اين ستوضع في هيكل الاتهام ، و لكنني كنت اعرف.

لقد استدعي سعيد في البدء ، و كما توقعت فانه لم يشر الى قضية الارث، و لكن شهادته كانت على اي حال جيدة : فقد رفض الاحتمال القائل بوجود علاقة بوجود علاقة بيني و بين زوجته ، ليس بسبب ثقته بليلى فقط ، و لكن ايضا لثقته بي انا ايضا ، و مضت الاسئلة سريعة و في مكانها :

- اين كنت يوم وقعت الجريمة ؟

- في الارجنتين .

- لماذا ؟

- كنت احاول الاتصال بخصم المرحومة في قضية الارث.

- لماذا ؟

- اردت الوصول الى تسوية .

- و هل توصلت ؟

- نعم ، قبل الصبي عشر الارث ليسقط الدعوى

- و لماذا اتصلت بالصبي و ليس بالمتهم ؟

- لان السيد صالح كان قد طلب لموكله ثلثي الارث .

- هل كانت زوجتك على علم برحلتك الى الارجنتين ؟

- اجل ، و ان كانت غير واثقة من نجاحها .

- هل كانت زوجتك تحاول ايجاد حل وسط مع خصمها ؟

- كانت ترفض في البدء ، و لكنها اخيرا قبلت .

- لماذا قبلت ؟

- لقد اعتقدت ان والدها لسبب من الاسباب ، كان مهتما بام الصبي ،رغم انها كانت متاكدة من انه ليس ابنه ، و لم تر بالتالي مانعا من مساعدته .

- و لماذا لم تطرا لها هذه الفكرة منذ البدء؟

- لقد قررت فجاة ، قبل يوم فقط من سفري ، ان تنتهي من القضية بطريقة خاصة ، و اقنعتني انها ليس بحاجة الى ارث والدها بسبب وضعنا المادي ، و انها تنوي ان تخصصه لبناء مدرسة لايتام اهل القرية التي جاء منها والدها و لفقرائها ، كانت تقول لى انها تنتلك وثيقة حاسمة ، و انها تستطيع ان تنهي القضية لحظة تشاء ، و لكنها لم تمانع في محاولة تسوية سريعة .

- و ماذا تنوي ان تفعل بالارث الان ؟

- بالطبع تحقيق ما ارادت و قد استكملنا كل شيء في الحقيقة .

- اي انك لم تنل شيئا من ذلك الارث ؟

- كلا

- بمن تشك؟

- لا احد ، كانت امراة بدون اي عدو.

- هل تشك بالمتهم ؟

- اطلاقا كلا .

- اذن لماذا تعتقد انه زارها اثناء فترة غيابك ؟

- لقد كان صديقا ، و زوجته صديقة لزوجتي ، و لست ادري كيف و لماذا قام بالزياره ، و لكنني اعتقد انه قام بها ضمن هذه الحدود ، و لسبب يتعلق بها .

-هل تعرض البيت الى سرقة ؟
-بعض المجوهرات فقط .

و كانت ثمة اسئلة اخرى عديدة لم اعد اذكرها الان .و حين غادر سعيد منصة الشهادة هز راسه مواسيا .

لقد بكت زوجتي ، على منصة الشهادة ، اكثر مما تحدثت ، روت قصة تعارفنا مع ليلى و زوجها ، و اسقطت حديثي عن ليلى ، و اكتفت بالتاكيد على انني قلت لها بان ليلى سيدة بليدة ، و ذكرت ان ليلى قالت لها بانني تصرفت معها يوم اوصلتها الى بيتها كتلميذ مدرسة يوصل خالته الى كوخها ، و روت لها ليف انني تضرجت خجلا حين اطرت طول قامتي بعد ان ناولتها مفتاح المنزل من فوق الباب ، و انني حين راقصتها كنت في منتهى الحرج و الوقار ، و رفضت ديما اي حديث عن علاقة غير شرعية بيني و بين ليلى ، و لكنها لم تستطع ان تفسر زيارتي الاخيره لها .

و جاء دور هناء ، فتحدثت عن هاتف طلبته لي ظهر اليوم الذي حدثت فيه الجريمة ، و لكنها قالت انها لا تعرف ماذا دار فيه من حديث مع ليلى ، و ذكرت ان عدة مكالمات هاتفية كانت تحصل بيننا و لكنها لا تعرف طبيعتها ، ثم روت تفاصيل عن حسن سلوكي و سمعتي ، و نفت ان يكون هناك اي احتمال بعلاقات او اعمال غير مشروعة يمكن ان اقوم بها .

و تحدث رجل عن قصة المصعد يوم الجريمة ،و قال انني كنت ابدو مضطربا و لكن مظهرى لم يكن يدل على اي عراك .و انني لفت نظرهم فقط حين غيرت رايى و عدت ادراجي دون ان اخذ المصعد.

و قال بواب العماره انني لم اوقف سيارتي امام البناء بالرغم من وجود متسع ، و شهد حارس انني كنت قد اوقفت سيارتي على بعد خمس دقائق مشي من مكان البناء الذي تسكنه ليلى .

و شهد بواب العماره التي يقع فيها مكتبي بانني رجل مستقيم ، و روى انه في ليلة الجريمة شاهد ضوءا في مكتبي ، و حين دخل راني اضع شيئا متطاولا في جيب معطفي الداخلي و لكنه لا يعرف ما هو ، و حين سئل عما اذا كان يعتقد انه سلاح قال انه لا يستطيع ان يجزم ، و سئل عما اذا كان يشبه المسدس او السكين ام البلطة ، فقال انه اقرب الى السكين ، و جاء احتجاج الدفاع على هذا السؤال متاخرا .

ثم سئل ان كان قد لاحظ شيئا اخر ، فقال انه راني البس قفازاتي .

و قال رجل لا اعرفه انه شهدني انزل من سيارتي على شاطئ البحر قرب دكانه فاقذف شيئا هناك ثم اتجه نحوه فاشتري علبة سجائر ، وقال انه فيما كان يعيد الي بقية النقود لفتت نظره الطريقة الغريبة التي افتح فيها علبة السجائر ، و انه حين قرا عن الجريمة في الصحف و خصوصا عن قصةالعلبة ، راي ان شهادته قد تفيد العدالة .

وقال ان ما رميته في البحر كان رزمة متطاولة لم يستطع ان يتبينها بوضوح ، و لكنه نفى ان يكون قد لاحظ على مظهري اي اثر لعراك او تصرف غير طبيعي .

و جاء شهود اخرون تحدثوا باسهاب عن فضائل ليلى الحايك ، و بعضهم تحدث عني بعطف و لم يوفر مديحا. و تحدث اخرون عن استقامة سعيد الحايك.

و حين كانت كل هذه الاصوات تدورفي قاعة المحكمة ، تصطدم بالجدران و تعود فتنقض علي بلا هوادة كنت – خارج كل شيء – اجمع الدلائل الصغيره التي جاء بها الشهود جميعا و اجد في ربطها قصة مثيره قد يحسن الادعاء استعمالها ضدي اذا ما صاغها باحكام .

و لكن هذه الحقيقة كنت اعرفها منذ البدء.

بل كنت احس انني لو كنت مكانه لما ترددت لحظة في صياغة قصة جريمة مثيرة قائمة على كل ما هو غير انساني و غير شريف... حافلة بكل ما في هذا العالم من اندفاعات حيوانية ووحشية غير مسؤولة ، و لكنني – فيما بعد – و كما سترون – فوجئت بما هو اكثر من هذا ، فقد استطاع الادعاء ان يروي قصة تكاد تكون حقيقية تماما!

لم تتم بعد...

هذا الكتاب إهداء لكم من
منتدى حديث المطابع
موقع الساخر
www.alsakher.com